حكاية حقيقية

وصلتني قبل أشهر، رسالة مسجلة في البريد السريع على عنوان بيتي الجديد الذي انتقلت إليه قبل أسبوعين لا غير، والذي لا يعرف به أحد بعد، تخبرني في النهاية بالتالي:

"عزيزي.. خبر سار، سأعود للقائك أخيراً، فقد حصلت على فيزا الدخول لأسبانيا.. يا للفرحة.. سأغادر العراق بعد يومين.. وصولي الساعة الرابعة عصراً من الأحد القادم ورقم الرحلة MESO1991.. أرجو أن تنتظرني في المطار.. شوقي لك وحتى لقاء قريب".

جاءت الرسالة هكذا بلا توقيع، لا أسم يذكر. فكرت أنه ربما كان بعجالة من أمره ولم يضع أسمه كاملاً، أو ربما فكر بأنني أعرفه حق المعرفة ولا داعي لذكره. مع ذلك خمنت كل الأسماء الممكنة من أهل ومعارف وأصدقاء ولم أتوصل لأي أسم محدد. على ما يبدو أن المرسل يعرفني بشكل دقيق. حاولت البحث في معلومات المرسل، ولم أجد عنوانه محفوظاً ضمن العناوين العديدة التي أحتفظ بها. من بين كلمات الرسالة الأخرى، ذكرني بحوادث عشناها معاً، ومقالب مرت بنا، كلها صحيحة وأتذكرها مع بعض التحريف، ولكنني حتى بعد الإنتهاء من قراءة الرسالة لم أتعرف على مرسلها. فكرت أنني قد قطعت مراسلاتي التقليدية منذ فترة طويلة، واكتفيت بالإنترنيت ورسائله الألكترونية، ولكن حتى هذه شجبها صاحب

الرسالة بقوله أنه قد حاول أن يراسلني على بريدي الألكتروني ولكن الرسائل تعود لبريده بسبب خطأ في العنوان، ومن هنا فكر برسالة مستعجلة على الطريقة القديمة.

كنت قد تركت بلدي منذ فترة طويلة، ومع مرور الوقت بدأت علاقاتي تنقطع تدريجياً مع معارفي، واقتصرت في الآونة الأخيرة على رسالة ألكترونية بين حين وآخر، أو مكالمة قصيرة لا تشي بشيء سوى لتذكر أننا ما زلنا على صلة لا معنى لها ولكنها مستمرة لعدم الشعور بوجودك أعزل وحيداً في عالم شاسع لا حد له.

قررت أن أكتب له رسالة تقليدية بدوري كي يعرفني بنفسه معتذراً منه بأنني أمضي أيامي مؤخراً بذاكرة مخرقة، كل ذلك لضغط سنين الغربة الطويلة. ولكن قرب اليوم المحدد لوصوله، جعلني أغير رأيي، ووجدتني مضطراً للذهاب ظهر يوم الأحد حتى المطار لإستقبال صاحب الرسالة الذي لا أعرفه ولا أتذكره.

في المطار حاولت معرفة الجهة التي تجيء منها هذه الطائرة طالما لا يوجد طيران مباشر من العاصمة بغداد منذ عام 1991، فلم أفلح. فتاة الإستعلامات بعد بحث عن رقم الرحلة أخبرتني أنه لا معلومات محددة بشأنها. عندما إعترضت، قالت لي بالحرف الواحد: "الرحلة المطلوبة معلن عنها على الشاشة مع وقت وصولها، ولكن لا إشارة للبلد القادمة منه.. أنا مثلك لا معلومات عندي، فهل تظن بي ساحرة كي أخبرك. أنتظر وصولها وسترى". ثم تركتني وبدأت الحديث مع سائل آخر.

من على شاشة معلومات الطائرات عرفت بوابة وصولها فتوجهت بالقرب منها وجلست على كرسي بين حشد من الناس المنتظرين. التهيت طوال نصف ساعة بقراءة صحيفة حملتها معي، وبين حين وآخر أنظر أمامي للتأكد وحسب من تواجدي قرب الرقم الصحيح للبوابة. بعد لحظات نهض شخص جلس قربي في كرسي مجاور وشغل مكانه رجل عجوز حياني مبتسماً وراحت عيناه تراقبان البوابة

معي. كنت أشعر بالرجل بقربي من تنفسه الثقيل ومن كلمات يطلقها بلا معنى، ربما للتأكيد على دوره في الحياة مثلما نفعل كلنا بمناسبة أو بدونها. ولكن تنهداته الكلامية شغلتني عن القراءة والمتابعة، فحاولت أن أنهض وأترك الكرسي بحثاً عن آخر. في هذه اللحظة التقيت بعينيه، وظل يتأملني بدقة ثم أمسكني من يدي ليطلب مني شيئاً لم أفهمه بسبب الجلبة وعندما قلت له إنني لم أفهم، قال لي: "لقد نسيت نظارتي في البيت، هل تتفضل وتساعدني برؤية شاشة وصول الطائرات وتخبرني هل حصل تغيير في وصول الطائرة برحلتها رقم MESO 1991.؟".

قلت له " بالطبع، لا تهتم، سأراقبها بنفسي، أنا أنتظر الطائرة نفسها".

تركته ومضيت لأقرب شاشة وبحثت عن طائرتنا المرتقبة ولكنني لم أراها هذه المرة. ليس هناك أية إشارة عنها. دققت كثيراً قبل أن أقترب من فتاة الإستعلامات من جديد متسائلاً عن هذا الخلل.

نظرت الفتاة في شاشة الكمبيوتر وقالت لي:

– لا وجود لرحلة بالرقم الذي تطلبه.. هل أنت متأكد من رقم الرحلة؟

– طبعاً.

– يؤسفني أن أخبرك بأنه لا معلومات عن الرحلة المطلوبة

– كيف لا.. قبل قليل كانت مدونة على الشاشة

– لا يمكن، لو حصل تأخير أو تأجيل لأعلنا عن هذا على الشاشة نفسها.

ضغطت بجسدي على الطاولة، وتقربت منها حتى أصبح وجهي قريباً من وجهها، ربما لإشراكها بمعضلة ظننت أن لها علاقة مباشرة بها.

– يا آنسة، أنت نفسك قبل نصف ساعة أخبرتني عنها عندما سألتك عن بلد إقلاعها.. ألا تتذكرين؟

– وهل يجب أن أتذكر كل من يسألني.. هل تعرفت كم عدد الأشخاص الذين يقتربون للسؤال في نصف ساعة؟

– لا.. لا أعرف، أعتقد أنهم كثر.. ولكن ليس معنى هذا أنني أكذب عليك، وأن الرحلة المعلن عنها قبل دقائق تختفي بلمحة عين دون سبب.

– لا يمكن القول بلا سبب.. الحالة أنه لا وجود لرحلة بهذا الرقم، هذا كل ما في الأمر.

– وهل تظنيني موهوماً أو جئت لأتسلى في صالة المطار، لقد أخبرتك...

– أيها السيد . قاطعتني محتجة وبحركة يد تطوح بها جانباً . هناك أشخاص ينتظرون دورهم، وهذا أقصى ما أستطيع إخبارك به، إذا شئت تستطيع الإقتراب من مكتب الإحتجاجات الرئيسي وتستفسر أو تعلن غضبك كما تشاء!

ومثل المرة الأولى تجاهلتني وبدأت تستعلم ممن كان خلفي عما يريد.

كنت قد مضيت باتجاه بوابة مكتب الإحتجاجات الذي أشارت له فتاة الإستعلامات بنية السؤال والإحتجاج حقاً، ولكني تصادفت بالرجل العجوز يمسكني من جديد متسائلاً، فما كان مني إلا أن أخبرته ما حصل.

سكت الرجل، جلس في مقعده واطلق آهة جديدة ليسمعني ما يقول: " لا يمكن هذا، مرة أخرى يحصل الشيء نفسه!".

عندما سمعت جملته، غيرت رأيي وجلست قربه واستفسرت عما ذكره قبل قليل.

لم يفكر العجوز كثيراً حتى قال إنها المرة الثالثة التي يأتي لإنتظار الطائرة المعلنة وفي كل مرة يفاجأ بالخبر ذاته. مع مرضه وضعف نظره وحركته البطيئة مع منع الأطباء له بأن يجهد نفسه، لكنه يصبر نفسه ويقدم للمطار ولا أمل يرتجى منه ليحل له معضلة الرسائل المستعجلة التي تصله والتي تخبره بقدوم أحد من معارفه لإسبانيا. قال لي أنه لم يعرف حتى الآن مصدر الرسائل ولا من أي بلد قدوم الطائرة المفترضة الوصول. حاول أن يكذب الخبر، ويظن به مزحة سمجة من شخص ثقيل الظل، ولكن الرسائل كانت تصله من خارج إسبانيا، تحديداً من

بلده، وهو ما جعله يتأكد أن الخبر حقيقي ولا مجال للتلاعب فيه.. ولكنه لا يعرف ماذا يفعل، مضت أسئلته أدراج الريح ولا أحد يعرف شيئاً عن الرحلة ولا صاحب الرسائل، ولكنه مجبر مع وصول كل رسالة أن يجيء بنفسه لعل القادم يصل مرة ولا يجده بانتظاره.

تشابك عندي خبر رسائل العجوز مع الرسالة التي وصلتني، ولكنني لم ألمح صلة مشتركة بيننا، كل واحد منا من جهة مختلفة ومتضادة تماماً، فهو من أفريقيا وأنا من آسيا، فما العلاقة بيننا حقاً.

– ماذا نفعل إذن؟

تساءلت أو مجرد طرح غير معقول لمسألة لا أساس لها.

– نفعل.. وهل هناك ما نستطيع فعله؟

لم يقل غير ذلك، نهض، لبس قبعته الفرو وتركني وسار باتجاه بوابة الخروج دون أن يودعني ولا إشارة لشيء يمكن أن يدل على ما سيقوم به. ولكنني من مقعدي رأيته يجر قدميه بتثاقل قبل أن يندس في تاكسي عند الشارع الخارجي للمطار، ليس ببعيد عن الواجهة الزجاجية لكرسي جلوسي.

لم اتبع طريقه. نزلت السلالم لأستقل قطار الأنفاق حتى أقرب محطة من بيتي. في القطار الذي سيقطع مسافة نصف ساعة قبل أن يضعني في محطتي، كان في مواجهتي ملصوقاً على زجاج القطار إعلان عن رحلات سياحية لأفريقيا الساحرة مع صور لفتاة أفريقية عارية الصدر، أحراش خضراء و وحوش مفترسة مع كلمات تذكر بالجنة المرتقبة (رحلة خيالية في القرن الحادي والعشرين لعالم من القرون الوسطى) تقول جملة الإعلان. على المقعد المقابل لمقعدي ترك أحدهم أو نسي حتماً كتاباً لكاتب لم أسمع به لا قبل ولا بعد رحلة المطار، أما عنوانه (سيرة الطريق الذي يمضي بنا دون هدف!) فبقي عالقاً في بالي وأتذكره حتى الآن

دون ان أجرؤ تلك اللحظة أن أمد يدي لإلتقاطه أو حمله معي. تركته راقداً في مكانه، هكذا بلا سبب.